الناتنوغر افيا كأسلوب لدراسة المجتمعات الافتراضية

Netnography as a method for studying virtual societies

د.حياة قـزادري

كلية علوم الإعلام والاتصال (جامعة الجز ائر 3)

Kezahayali.74@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/12/10 تاريخ القبول: 2021/12/15

الملخص:

تتناول هذه الورقة البحثية موضوعا مهما جدا، باعتباره حديث الساعة للإشكالات البحثية التي يواجهها الباحثون في دراستهم للمجتمعات الافتراضية والبيئة الرقمية، لا سيما عند لجوئهم لاستخدام نفس الأساليب والأدوات المنهجية التي اعتادوا استخدامها في دراستهم لوسائل الإعلام في البيئة الواقعية.

وعليه تهدف الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على الناتنوغرافيا كتوجه بحثي جديد يسهم في دراسة البيئة الرقمية وما تزخر به من مجتمعات افتراضية ناتجة عن تطور تكنولوجيا الاتصال، باعتباره من التوجهات البحثية الأكثر صلاحية في الوصول إلى نتائج تعكس الواقع المعيش في مجتمعاتنا الانتقالية والعاجزة لحد الآن عن إنتاج معارف نظرية ومنهجية خاصة بها. والناتنوغرافيا كمقاربة هو استجابة منهجية من الباحثين لتكييف توجه بحثي نوعي قديم مع مستلزمات المجتمعات الافتراضية التي أحدثتها التطبيقات التكنولوجية المتسارعة.

الكلمات المفتاحية: ناتنوغرافيا، اثنوغرافيا، بيئة رقمية، بيئة اتصالية، بحث كيفي.

Abstrat :

This research paper deals with a very important topic, as it is the modern day of the research problems that researchers face in their study of virtual communities and the digital environment. Especially when they resort to using the same methods and methodological tools that they used to use in their studies of the media in the real environment. Accordingly, this research paper aims to shed

light on Netnography as a new research direction that contributes to the study of the digital environment and the virtual communities that it abounds with as a result of the development of communication technology. It is considered the most valid research direction in arriving at results that reflect the reality of living in our transitional societies, which are so far unable to produce theoretical and methodological knowledge of their own. This prompted researchers to adapt an old qualitative research orientation to the requirements of virtual societies brought about by accelerated technological applications, and this trend is represented in the ethnographic approach.

Keywords: Netnography, ethnography, digital environment, communicative environment, qualitative research.

مقدمة:

تغلغلت الإنترنيت في جل نشاطات حياة الأفراد فأصبحوا يستخدمونه ويشتركون ويشاركون في مختلف المواقع على تنوعها، كما أنهم لا يكتفون بوسيط واحد بل يعتمدون على عديد الوسائط للقيام بعدة نشاطات اتصالية. وهذا ما أدى إلى قصور المناهج الكمية لتفسير الظواهر الاتصالية في البيئة الرقمية نظرا للإشكالات البحثية المنهجية التي تواجه الباحثين عند استخدامهم لهذه المناهج. الأمر الذي أدى إلى بروز أهمية البحوث والمناهج الكيفية على الساحة البحثية لمحاولة إيجاد حلول للإشكالات البحثية التي لا يتسنى فهمها وتفسيرها بعمق بمنأى عن التوجه الكيفي الذي يعنى بدراسة الظاهرة في سياقها الطبيعي وبمتغيراتها المتداخلة بما يعكس تعقد الظاهرة الاجتماعية بصفة عامة والظاهرة الاتصالية بصفة خاصة باعتبارها ظاهرة اجتماعية. وعليه اعتبر الباحثون أن التوجه الإثنوغرافي بمختلف أشكاله توجه مهم لدراسة السلوك الاتصالي، بعدما أصبحت دراسات جمهور وسائل الإعلام ومستخدمي الوسائط الجديدة في ظل أنظمة الاتصال الرقمي تولي أهمية خاصة لشخصية الفرد باعتباره حاملا لقيم وضوابط اجتماعية تنعكس في سلوكياته اليومية وفي علاقاته بذاته وعلاقاته الواقعية والافتراضية بالآخرين الذين يشاركهم الخصوصية الثقافية والانتماء وكذا الآخرين الذين يختلف عنهم كلية والمتصل بهم واقعيا أو افتراضيا.

ويتطلب تطبيق المنهج الإثنوغرافي في شكليه التقليدي والافتراضي إلى خبرة ومهارة ومعرفة قبلية بمختلف السياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تساهم في مقدرة الباحث على تأويل مختلف

المعاني بالشكل الصحيح والمضبوط علما أن للسياقات في الدراسات الكيفية دورا هاما في التأسيس لنتائج بحثية جادة ومهمة.

وعليه سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة على التساؤلات التالي:

1- ما المقصود بالمجتمعات الافتراضية وما هي مميزاتها؟

2- ما هي أهم الإشكالات البحثية المنهجية التي تواجه الباحثين عند دراستهم للمجتمعات الافتراضية بالاعتماد على المناهج والأدوات المنهجية التي كانت معتمدة عند دراسة البيئة الواقعية؟
3- ما المقصود بالمنهج الإثنوغرافي كتوجه بحثي كيفي قديم؟
4- ما المقصود بالناتنوغرافيا كتوجه بحثي مكيّف لدراسة المجتمعات الافتراضية؟

وهو ما سوف يتم الإجابة عنه من خلال العناصر التالية:

1- تعريف المجتمعات الافتراضية ومميزاتها.
2- أهم الإشكالات التي تواجه الباحثين عند دراستهم للمجتمعات الافتراضية بالاعتماد على المناهج المعتمدة في دراسة البيئة الواقعية.
3- المنهج الإثنوغرافي كتوجه بحثي كيفي قديم
4- الناتنوغرافيا تكييف المنهج الإثنوغرافي لدراسة المجتمعات الافتراضية.

1- تعريف المجتمعات الافتراضية ومميزاتها:

تمتاز البيئة الرقمية بتغيرات عميقة في أنماط الاتصال وذلك ما أشار له الباحث قسايسية مؤكدا على "العودة القوية لممارسة الاتصال الشخصي والاتصال الذاتي إلى جانب الاتصال المؤسساتي الافتراضي وخاصة الاتصال الرقمي الشامل وتعميمه وانتشاره على نطاق واسع من خلال اكتساب أعداد كبيرة من مستخدمي الوسائط الجديدة، وتسابق وسائل الإعلام القديمة على ركوب وسائط التواصل الاجتماعي لملاحقة الجمهور الهارب منها ومطاردته أينما حل وارتحل، محاولة استعادته وكسب رضاه من جديد"(قسايسية،2020، 15). ويتجلى هذا في تراجع الاتصال الجماهيري وبروز الاتصال الرقمي حيث تغيرت أشكال الاتصال وأنماطه وأدوات ممارسته من حيث حجم الجمهور ونوعه وطبيعة علاقته مع القائم بالاتصال، بالإضافة إلى انتشار وتوسع صحافة المواطن والتدوين وصناعة المحتوى والمؤثرين من خلال الصفحات الشخصية على مختلف مواقع التواصل الاجتماعي، وهو ما أشار إليه الباحث

قسايسية: "يلاحظ أن الاتصال الجماهيري الممارس عبر وسائل الإعلام القديمة بدأ يتراجع بشكل محسوس منذ ظهور الوسائط الجديدة في بداية التسعينيات من القرن الماضي بفضل تشبيك العالم وخلق المجتمعات الافتراضية على الخط... وما يسمى بوسائط إعلام المواطن"(قسايسية،2020، 16).

والمجتمعات الافتراضية هي مجموعات شبكية خلقتها الوسائط التكنولوجية، تتكون من أفراد تربطهم اهتمامات ومصالح مشتركة، بحيث تشكل هذه الاهتمامات المحور الأساسي لتأكيد انتماء الفرد إلى تلك الجماعة، وتحديد طريقة ودرجة ومدة تفاعله ضمنها. تختلف هذه الجماعات من الناحية البنيوية و الوظيفية عن بنية و وظيفة المجتمعات الواقعية أو التقليدية.ويعد مفهوم المجتمعات الافتراضية من المفاهيم التي ظهرت نتيجة لتطور تكنولوجيا الاتصال الحديثة واندماجها في الحياة اليومية للأفراد، فهي عبارة عن تجمعات اجتماعية تظهر على شبكة الأنترنيت تشكلت في ضوء ثورة الاتصالات الحديثة التي تجمع ذوي الاهتمامات المشتركة، يتواصلون فيما بينهم ويشعرون كأنهم في مجتمع واقعي.

وعرفها الباحث علي محمد حومة على أنها: "تجمعات اجتماعية تنشأ على شبكة الأنترنيت حين يستمر أناس بعدد كاف في مناقشاتهم علنيا، لوقت كاف من الزمن بمشاعر إنسانية كافية لتشكيل شبكات من العلاقات الشخصية في الفضاء السيبراني. ومن هنا فإن هذه المجتمعات على الخط تتركز حول الأمكنة الثلاثة الرقمية: غرفة الدردشة، المحادثة ونظم المؤتمرات، إنها مجتمعات وجماعات أنترناتية ، تجذب مزيدا من الناس ومستخدمي الأنترنيت (حومة ،2008، 65).

و هناك تعريفا آخر يعتبره فضاءً جديدا تقطنه الجماعات تمارس فيه الصفقات وتقام فيه المؤسسات والمتاحف والمعارف ومنافذ البيع تعقد فيه التحالفات وتحاك فيه المؤتمرات تنقل فيه المعلومات بسرعة فائقة . ورغم محاكاته لفضاء الواقع إلا أنه يختلف في طبيعته وقوانينه وأعرافه عن الفضاء الواقعي فليس هناك سلطة مركزية تحكمه أو جهة رقابية تراجعه بل مجرد لجان أو مجموعات غير حكومية (سفيان ،2017، 312).

وقد تم تقديمها على أنها مجتمعات العلامات التجارية على الأنترنيت في مجال التسويق من قِبَل مونيز وأوجين Muniz et O'Guinn في 2001؛ وتعرف هذه المجتمعات بأنها "مجتمع متخصص، لا يرتبط جغرافياً، ويقوم على مجموعة منظمة من المتخصصين، ويستند إلى مجموعة منظمة من العلاقات الاجتماعية بين المعجبين بعلامة تجارية. وهذا يشكل رافعة جديدة مهمة للشركات لتحسين علاقاتها مع

الأفراد. وهذا لا يقتصر على المستهلكين فحسب، بل ويتعلق بأي شخص مهتم ونشط في السوق، بما في ذلك الموظفين ومستخدمي العلامات التجارية المتنافسة فضلاً عن الخبراء (Hachemi, Laradi,2020, 5).

وعرفهاأحمد زايد: "بأنها العالم الفضائي غير المرئي وغير المرتبط بمكان وزمان معينين، والذي تتداول داخله المعلومة الإلكترونية (..) والجماعة التي تكوّن المجتمع الافتراضي هي مجموعة من الناس تجمعهم المعرفة بعالم المعلومات وهؤلاء لا يعيشون في جماعة تجمعها حدود معروفة ولكنهم لا يعرفون بعضهم البعض وليست لهم أهداف واحدة أو مصالح واحدة، كما لا يجمعهم تاريخ واحد أو وعي واحد ولا يشتركون في معتقدات واحدة ." (زايد ، 2003، 16)

نستخلص من هذا التعريف إشارة إلى الاختلافات الموجودة بين العالم الافتراضي والعالم الواقعي والمتعلقة بمفهوم الجماعة بكل مواصفاتها التقنية وبالمستخدمين الذين يكوّنون مواصفات المجتمع التفاعلي وبذلك تعبر المجتمعات الافتراضية عن كل جماعة من الأفراد يتفاعلون باستخدام أجهزه اتصالية رقمية دون قيود أو حدود زمنية ولا مكانية.

وقد قدمت الباحثة كلتوم بيبيمون تعريفا للمجتمعات الافتراضية باعتبارها تجمعات اجتماعية افتراضية يتواصل عبرها الفاعلون في سياق ثقافي مفتوح لفترة زمنية وغاية محددة من أجل إشباع اهتمامات معينة تفترض بناء علاقات اجتماعية افتراضية يحددها التمازج بين العالمين الافتراضي والواقعي، والمنظومة القيمية التي تؤطرهما، وتوجه سياق التفاعل بينهما ذلك أن التفاعل في ضوء المجتمعات الافتراضية يتخذ وجهات متباينة، حسب طبيعة القيم المشتركة التي يتقاسمها أطراف التواصل، والتي تحدد درجة الارتباط بينهم، استمرارية علاقاتهم ونمو الشبكات التنظيمية العلائقية المتمخّضة عنها والتي تسمح بنمو المجتمعات الافتراضية.(بيبيمون ،2016، 76)

انطلاقا من هذه التعريفات يمكن استخلاص مجموعة من العناصر تميّز الجماعات الافتراضية:

- تتميز المجتمعات الافتراضية بوجود جماعات من الناس، متعددة الهويات،تتواصل عبر الأنترنيت من دون حدود زمنية ولا مكانية.
- تميّز المجتمعات الافتراضية اهتمامات مشتركة بين الهويات المتفاعلة في هذه المجموعات. وخاصية الانجذاب بين جماعات لم يسبق لها التعارف في الواقع في غالبية الأحيان.
- تتميّز المجتمعات الافتراضية بالاستمرارية في العملية التفاعلية لفترة معينة، وتشمل التفاعلات تبادل المعلومات بأحاسيس إنسانية تسمح ببناء علاقات شخصية افتراضية .

- تتميّز المجتمعات الافتراضية بأنها وسيلة وفضاءً للتواصل باعتبارها فضاء رقمي.
- تتميز المجتمعات الافتراضية بالهويات الافتراضية حيث يمكن للأفراد ابتكار شخصيات وهمية غير حقيقة يستخدمونها للتفاعل والاندماج داخل المجتمعات الافتراضية.
- يتميز الأفراد في المجتمعات الالكترونية بالقلق الالكتروني حيث تنتج التفاعلات الافتراضية قلقا مستمرا في نفوس المستخدمين لا يظهر للعلن وهو ما يتمثل بالفعل ورد الفعل في العملية الاتصالية الافتراضية، فعلى سبيل المثال عندما ينشر شخص ما منشور ما في إحدى المجموعات التي ينتمي إليها، ينتظر بفارغ الصبر الإعجابات والتعليقات التي يتلقاها من الأفراد المنتمين للجماعة.
- تتميز المجتمعات الافتراضية بالاختيارية حيث تسمح للفرد باختيار الموضوع والزمان الذي يريده ويحدده دون وجود محددات تُفرض عليه.
- تتميّز المجتمعات الافتراضية بالتشاركية والتمرّد حيث تظهر هذه السمة بوضوح عندما يتوحد أو يتمرد الأفراد داخل المجتمعات الافتراضية حول قضية ما سياسية كانت أودينية أو اجتماعية أو ثقافية مما يُحدث تفاعلا ذي صدى واسع عبر شبكة الأنترنيت ويرتبط حجم هذا الصدى بحجم القضية المثارة وعدد الأفراد الذين تمسهم .(حسني ، 2019. 01)
- تتميز هذه المجتمعات بوجود شروط وقواعد انتساب تعد كمفتاح للولوج إلى العالم الافتراضي.

2- الإشكالات التي تواجه الباحثين عند دراستهم للمجتمعات الافتراضية بالاعتماد على المناهج المعتمدة في دراسة البيئة الو اقعية

حددت الباحثة عبد المجيد صلاح مجموعة إشكالات تعترض الباحثين عند دراستهم للمجتمعات الافتراضية بالاعتماد على المناهج والأدوات البحثية التي كانت معتمدة في دراسة المجتمعات الواقعية ويتمثل أهمها فيم يلي: (عبد المجيد صلاح،2016، 91).

- يصعب على الباحثين تحديد إطار العينة عند دراستهم للمجتمعات الافتراضية مما يصعب أيضا عملية المعاينة واختيار العينة المناسبة والتمثيلية للمجتمع المدروس. بالإضافة إلى عدم إمكانية الاعتماد على العينات الاحتمالية وهو ما يجعل إمكانية تعميم النتائج منعدمة.
- الهويات الافتراضية المجهولة التي يمتاز بها أغلبية أفراد المجتمعات الافتراضية تؤثر على مصداقية البيانات المستخرجة، بسبب عدم صدق البيانات الديموغرافية التي يتم عرضها على

الملفات التعريفية للمنتمين لهذه المجتمعات الافتراضية. حيث تؤثر الهويات الافتراضية على إجراءات المعاينة وتجعل الباحث يصل إلى نتائج غير صحيحة بسبب اعتماده على بيانات غير واضحة ودقيقة.

- من الإشكالات التي تعترض الباحثين عند دراستهم للمجتمعات الافتراضية هي عدم مصداقية الآراء والأفكار المنشورة في هذه المجموعات بحيث لا تعبر في غالبية الأحيان عن الواقع الحقيقي، وقد تكون سلوكيات الأفراد المنتمين لهذه المجتمعات والتي تعكسها كتاباتهم وتعليقاتهم وتفاعلاتهم مغايرة تماما لسلوكياتهم في الواقع الحقيقي. فالأفراد في الغالب يتصرفون في الواقع الافتراضي بشكل مخالف عن تصرفاتهم في الواقع الحقيقي.
- إمكانية حصول الفرد على حسابين أو أكثر ضمن نفس المجتمع الافتراضي يخلق إشكالا بالنسبة للباحث بحيث يتعرض للتضليل في مثل هذه الحالة إذا لم ينتبه لذلك ولم يكن يمتلك المهارات التي تمكنه من تحديد الحسابات الرسمية الأصلية للشخص المبحوث.
- اعتماد الباحث على المناهج والأدوات المسحية في دراسة المجتمعات الافتراضية وجمع بياناتها يخلق إشكالا عند الباحث بسبب عدم إمكانية هذا الأخير من تحصيل شرط التمثيل بالنسبة للعينات المختارة، بالإضافة إلى عدم استجابة العديد من الباحثين لملء الاستبيان الالكتروني.
- تعد إشكالية صدق وثبات الاستبيان الإلكتروني من الإشكالات التي تعترض الباحث عند دراسته للمجتمعات الافتراضية بسبب عدم معرفة شخصية المبحوث في غالبية الأحيان وعدم انطباق مواصفات العينة على المبحوثين مجهولي الهوية، كما يمكن لنفس المبحوث الإجابة على أكثر من استبيان لنفس السبب وهو الهويات الافتراضية التي لا يستطيع الباحث التحقق منها مما يؤثر على عدم صحة النتائج.
- إن اعتماد الباحث في دراسته للمجتمعات الافتراضية على أسلوب بحثي واحد لا يُمكّن الباحث من تقديم معرفة جديدة تفسر الظاهرة الاتصالية الرقمية ولا من إدراك التفاصيل والتفاعلات المرتبطة بالسياقات الاجتماعية والثقافية والفكرية التي تحدث فيها الظاهرة. غير أن عديد الباحثين مؤخرا يدعون إلى استخدام الأسلوب الكيفي في دراسة الظواهر الاتصالية الرقمية ويعد منهج البحث الإثنوغرافي من المناهج الكيفية كتوجه بحثي قديم تم تكييفه لدراسة الظواهر الاتصالية الرقمية والمجتمعات الافتراضية.

3- المنهج الإثنوغرافي كتوجه بحثي كيفي قديم:

تحوّل عديد الباحثين الضالعين في مجال المناهج الكمية في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا بعدما قضوا عديد السنوات في ممارسة البحث الكمي إلى المناهج الكيفية وبصفة خاصة المنهج الإثنوغرافي لاقتناعهم أنه الأنسب لتحقيق ما عجزت عن تحقيقه المناهج الكمية. إلا أن الإثنوغرافيا في الدول العربية مازالت لم تلق الرواج باعتبارها منهجا بحثيا من مناهج البحث في علوم الإعلام والاتصال كما أن تدريسها في الجامعات محدود ويرجع ذلك إلى ضعف الاهتمام به بوصفه أحد المناهج البحثية من الناحية النظرية أو من ناحية تطبيقه في الميدان (أوراغي،2007، 45).

ويعتمد المنهج الإثنوغرافي على الوصف والتحليل، باستخدام الكلمة والعبارة عوضا من الأرقام والجداول الإحصائية، وترتكز أهميته في كونه يقدم وصفا عميقا ومكثفا للظاهرة محل الدراسة،... اعتمادا على مشاركة الباحث المتعمقة لمجتمع الدراسة، وباعتباره الأداة الرئيسية في جمع البيانات وتصنيفها وتحليلها، ويعتمد المنهج الإثنوغرافي في جمع بياناته أساسا على الملاحظة بالمشاركة، والمقابلة المفتوحة المتعمقة مع الجماعة المدروسة.

وقد استعار الباحث البريطاني دافيد مورلي (David Morley) المقترب الإثنوغرفي في دراسة التفاعلات بين مختلف أفراد العائلة أمام شاشة التلفزيون في السياق العائلي أو الفضاء المنزلي، حيث استجوب ولاحظ بالمشاركة ثمانية عشر عائلة بريطانية من الطبقة العاملة تتكوّن من بالغين وطفلين. واهتم هذا الباحث بالاختلافات المتواجدة بين العائلات المبحوثة من جهة، وبين الأفراد داخل العائلة الواحدة من جهة ثانية، مرّكزا على علاقة السلطة بين الجنسين وبين البالغين والقصر، دون أن يهمل إطار التحليل وبنية الجمهور من منظور الانتماء الطبقي والتربية والإيديولوجيا... التي تحدد السياق الاجتماعي والثقافي الذي تحلل فيه تركيبة الجمهور وواقعه وأنماط تفاعله.(حيزير،2018، 271).

فالمنهج الإثنوغرافي هو الدراسة الحقلية الميدانية بمشاركة الباحث في الظاهرة المدروسة يهتم بدراسة العادات والتقاليد والأعراف والمعتقدات عند جماعة معينة، معتمدا على الملاحظة بالمشاركة وبدون مشاركة لرصد الظاهرة المدروسة ومعاينتها بشكل دقيق وجمع البيانات حولها وتدوينها وتسجيلها ومراقبة ووصف عادات وتقاليد الجماعة المعنية بالدراسة وصفا دقيقا شاملا من مختلف الجوانب.

ومن الخصائص التي يمتاز بها المنهج الإثنوغرافي والتي جعلته يعتمد كمقاربة لدراسة الظاهرة الاتصالية الرقمية والمجتمعات الافتراضية ما يلي:

- يتصف المنهج الإثنوغرافي بأنه مرن لأنه يتيح للباحث إمكانية الابتكار والإضافة له من خلال قدرته على جمع أكبر قدر من البيانات، حيث لا توجد آلية موحدة لجمع البيانات وتحليلها.
- في إطار المرونة المتاحة للباحث في المنهج الإثنوغرافي بإمكان الباحث تغيير خطة الدراسة وتصميمها وحتى تساؤلات البحث وفقا لما يلاحظه خلال عمله الميداني وأثناء معايشة الباحث للمجتمع المدروس، حيث يمكن أن تتشكل في ذهن الباحث تساؤلات بحثية جديدة تعتبر أكثر أهمية من التي وضعها من قبل يعني عند دخوله حقل الدراسة.
- في المنهج الإثنوغرافي يدخل الباحث إلى حقل الدراسة بعقلية علمية متفتحة ويعمل على نقل ووصف ما يشاهده ويسمعه بكل أمانة من خلال تسجيله للملاحظات والآراء والأفكار والمقترحات من داخل ميدان الدراسة.
- يعتمد الباحث الإثنوغرافي على دراسة السلوك في وضعه الطبيعي قصد معرفته في سياقاته الطبيعية غير المفتعلة بمعنى دون تحكم الباحث أو ضبط، ويعتمد في ذلك على تكرار الملاحظة والملاحظة بالمشاركة.
- لا يفرض المنهج الإثنوغرافي على الباحث التركيز على معيار الموضوعية مثلما هو مطلوب بالنسبة للمناهج الكمية، فالباحث في هذا المنهج يمكنه تقديم رؤيته المعرفية مع الفصل بينها وبين رؤى المبحوثين لأن هدفه الأساسي هو وصف الواقع وتفسير طبيعة التفاعل الاجتماعي والثقافي للمجموعة محل الدراسة.
- يستلزم المنهج الإثنوغرافي لتحقيق أهدافه من الباحث أن يكون ذو قدرة على إقامة علاقات اجتماعية متميّزة مع المبحوثين تمكّنه من كسب ثقتهم وتعاونهم معه وذلك من خلال معايشتهم ومشاركتهم الفعل وسلوكهم الاتصالي والاندماج معهم.
- يعتبر التعميم غاية المناهج الكمية بعد الوصف والتفسير للظاهرة المدروسة على عكس هدف وغاية المنهج الإثنوغرافي الذي يعتمد على الوصف والتفسير لكن دون إمكانية تعميم النتائج.
- يعتمد المنهج الإثنوغرافي على درجة عالية من الإحساس بالواقع والتفاعلات من قبل الباحث داخل حقل الدراسة وهو ما يسهل عليه جمع البيانات من مصادرها الطبيعية وربطها بسياقاتها الثقافية والاجتماعية وتحويلها إلى معان ودلالات ذات صلة بالموضوع المدروس.
- الباحث في المنهج الإثنوغرافي هو أداة أساسية في جمع البيانات والمعلومات وتصنيفها وتحليلها وتقديم النتائج.

- يستلزم المنهج الإثنوغرافي من الباحث الإقامة مع المجتمع المدروس أو حقل الدراسة لمدة طويلة لأن هذا النوع من البحوث يتطلب جمع الكثير من البيانات والمعلومات.
- يتطلب المنهج الإثنوغرافي دراسة جماعة أو مجموعة أو أسرة أو مجتمع صغير.
- على الباحث في المنهج الإثنوغرافي أن لا ينطلق في بحثه من نظريات وفرضيات علمية مسبقة وإنما المطلوب منه الخروج بنظرية من خلال وصفه وتفسيره للبيانات التي يجمعها من حقل الدراسة والتي تعبر عن أفكار ورؤية المبحوثين للظاهرة محل الدراسة.

ولهذا أيد الباحث علي قسايسية استخدام المنهج الإثنوغرافي في دراسة الظاهرة الاتصالية الرقمية مثلما عبر عليه قائلا: "يتمثل التوجه الجديد في المنهج الإثنوغرافي في دراسة السلوك الاتصالي للجمهور والتفاعلات الممكنة مع الرسائل الإعلامية التي يتلقاها من مختلف الوسائط المتوفرة في الفضاء الاتصالي الجديد الذي تشكل الأنترنيت أهم وسائطه على الإطلاق، وأوسع مجال الثقافة التفاعلية بين الإنسان والمحيط التكنولوجي... والذي يستلزم تحديد إثنوغرافيا الجمهور وإجراء تحريات علمية حول أنظمة التأويل والعمليات التي يقوم بها المتلقون. وتستند خطوات البحث إلى مختلف وحدات التحليل : الفرد باعتباره موضوع اجتماعي وذات فردية والجماعة والعلاقات ما بين الذات المشتركة في تجربة الحياة اليومية للجماعة"(قسايسية،2010).

وقد أطلق على تطبيق المنهج الإثنوغرافي في دراسة الظاهرة الاتصالية الرقمية والمجتمعات الافتراضية مصطلح إثنوغرافيا الأنترنيت أو الناتنوغرافيا وهو ما سوف نقوم بتوضيحه في العنصر الموالي.

4- الناتنوغر افيا تكييف المنهج الإثنوغرافي لدراسة المجتمعات الافتراضية:

تهدف الناتنوغرافيا إلى تحويل استخدام المنهج الإثنوغرافي من دراسة المجتمعات الواقعية إلى دراسة المجتمعات الافتراضية. فبعد أن كان يعتمد التحقيق الإثنوغرافي على دراسة الجماعات الإثنية باستخدام تقنيات بحث ميدانية خاصة، لوصف و تأويل ممارسات المبحوثين وتفاعلاتهم ضمن سياقهم الثقافي والاجتماعي، من خلال معايشة الباحث للمبحوثين ومشاركته في الظاهرة المدروسة، أدى تطور تكنولوجيا الإعلام والاتصال وظهور شبكة الانترنت بمختلف تطبيقاتها ووسائطها إلى خلق مجتمعات موازية للمجتمعات الواقعية سميت بالمجتمعات الافتراضية يمارس فيها الأفراد المنتمين لهذه المجتمعات مختلف الأنشطة الاتصالية ويتفاعلون ضمنها بدون حواجز الزمان والمكان، وهذا ما جعلها محل اهتمام من قبل الباحثين وعملوا على دراستها عن طريق تكييف المنهج الإثنوغرافي مع العالم الافتراضي. وهو ما

أثر على خصوصيات المنهج الإثنوغرافي وعلى طرق إنجازه، حيث اختلف ميدان البحث عن العالم الواقعي وأصبح ميدانا افتراضيا. كما أن الملاحظة بالمشاركة التي تعد الأداة الأساسية للبحث في المنهج الإثنوغرافي التقليدي، أخذت أشكالا أخرى بحيث أصبح الباحث يراقب ويشارك مبحوثيه من خلف شاشة جهاز الحاسوب أو اللوح الالكتروني أو الهاتف بدل ملاحظتهم ومشاركتهم واقعيا، وهذا ما خلق العديد من التساؤلات لدى الباحثين عند استخدامهم للناتنوغرافيا، وأصبح الإبهام قائما حول كيفيات إجراء البحوث الناتنوغرافية، وما الذي يتم تضمينه، وما الذي يتم تفاديه، وطُرحت العديد من الإشكالات أيضا حول بعض المسائل المنهجية فيما يتعلق بالسياق وحقل أو ميدان البحث، وكذا مدى صدق النتائج .

وكان أول من قدم الطريقة الناتنوغرافية لدراسة الفضاءات الرقمية هو الباحث كوزيني Kozinets سنة 1997 باعتبارها دراسات كيفية تهتم بالتعمق في ثقافات الأفراد، ورغباتهم واختياراتهم وكذلك تفاعلاتهم في حقل غير معروف بالنسبة للباحث.(Sayarh,2013, 229)

ويتكون مصطلح الناتنوغرافيا netnography من شقين أساسيين، الإثنوغرافيا (ethnography) والنت (net)، الإثنوغرافيا كما سبق شرحها هي شكل من أشكال البحوث النوعية التي تتيح للباحثين تحصيل وجمع البيانات داخل السياقات الثقافية أو الاجتماعية من الحقل محل الدراسة أما الناتنوغرافيا فابتكرت خصيصا لدراسة سلوكيات الأفراد وتفاعلاتهم وممارساتهم داخل الفضاءات الرقمية عن طريق آليات وأدوات منهجية مستنبطة من المنهج الإثنوغرافي، بحيث تستند بشكل أساسي على الملاحظة بالمشاركة ومعايشة الباحث وانخراطه المطول وانغماسه التام ضمن المجتمع الافتراضي المدروس والمقابلات العلمية بمختلف أنواعها، فهي تقوم أساسا على العمل الميداني الافتراضي وعلى عنصر المرونة والقابلية للتكيّف مع السياقات البحثية التي تتواجد فيها الجماعة المدروسة.

و رغم خصوصية المجتمعات الافتراضية و منطقها و مميزاتها، إلا أن المنهج الإثنوغرافي لا يعرف الكثير من التغييرات الجوهرية في رحلته نحو دراسة العوالم الافتراضية، لأن الإثنوغرافيا تعد منهجا مرنا ومتفاعلا مع السياقات البحثية المتباينة ولابد من تكييفه بما يتناسب مع البيئة الرقمية والمجتمعات الافتراضية. وعليه تتأسس الناتنوغرافيا على المبادئ التقليدية للإثنوغرافيا مثل: الملاحظة والملاحظة بالمشاركة بصفة خاصة والانغماس المعمّق للباحث داخل المجتمع المدروس ومعايشته لمدة طويلة، محاولا فهم السياقات الثقافية والاجتماعية التي تحصل فيها التفاعلات وذلك من خلال مقاربة الحياة اليومية

المعاشة من قبل الجماعات والأفراد والتي توفر له معطيات بالغة الأهمية لفهم الثقافات المتوّلدة داخل المجتمعات الافتراضية.

فالناتنوغرافيا تركز على فهم الكيفيات التي تؤثر بها الثقافة على الأفراد و كيف يسهم الأفراد في تشكيل الثقافة و إثرائها أكثر من الاهتمام بإبراز بعض الحقائق الاجتماعية في ضوء مجموعة من المتغيرات الإحصائية و المعاملات الرياضية الجامدة. خاصة بتبنيها لمنهج يستخدم أساسا لدراسة الثقافة و أبعادها داخل المجتمعات الواقعية و توظفيه لدراسة الممارسات و التفاعلات و أنظمة التواصل داخل المجتمعات الافتراضية، وهي تستهدف تأويل و ترجمة التوجهات المعقدة في الحياة اليومية التي تحتضن تجاربنا الفردية و الجمعية المعاشة ضمن هذا الفضاء الرقمي.

من الناحية الاصطلاحية هناك مجموعة من التسميات للناتنوغرافيا مثل: الاثنوغرافيا الرقمية (digital ethnography)،الاثنوغرافيا الافتراضية (virtualethnography)، اثنوغرافيا الانترنت (internet ethnography)، غير أن البعض يرى أن هذه التسميات مضللة، ذلك أن الاثنوغرافيا بإمكانها التغلغل والغوص بسلاسة و دينامية داخل العوالم الافتراضية، حيث أن الباحثين في المجال الإثنوغرافي يقومون بالبحث داخل الفضاءات الافتراضية كإثنوغرافيين وليسوا كإثنوغرافيين افتراضيين وقد استخدمت الباحثة هاينHine (2008) في دراساتها لمصطلح الاثنوغرافيا الافتراضية "virtualethnography"، بينما استعمل كل من كرو ووتس Crowe& Watts (2014) مصطلح الإثنوغرافيا عن بعد (online ethnography) ، و استخدم قربيش Grbich (2007) مصطلحات متعددة في أبحاثه منها الاثنوغرافيا الرقمية (digital ethnography) والاثنوغرافيا الشبكية (network ethnography).(Millette et autre,2020, 78).

و بغض النظر عن المصطلحات المستخدمة، فإن جميع البحوث الإثنوغرافية التي تهدف إلى مقاربة الثقافات والتفاعلات الاجتماعية على العالم الافتراضي قد وسعت من مضمون المفاهيم الكلاسيكية للعمل الميداني و الدراسة الإثنوغرافية و سيرورة التحليل الإثنوغرافي، حيث تحول النشاط البحثي الإثنوغرافي من ملاحظة للتفاعلات المواجهية ضمن الفضاءات الواقعية إلى ملاحظة تفاعلات المستخدمين للتكنولوجيا داخل فضاءات افتراضية مبنية على ممارسات ثقافية سيبرانية.

وتعد الناتنوغرافيا (netnography) المنهج الأمثل لدراسة الفضاءات الرقمية و جغرافياتها الثقافية و الاجتماعية، إذ أنها تتفوق على الإثنوغرافيا الكلاسيكية من حيث أنها أقل تكلفة و توظف تقنيات أكثر مرونة تتيح للباحث التغلغل داخل المجتمعات الافتراضية، كما أنها الأنسب لمواجهة

الوضعيات الصعبة والمرّكبة التي تصادف الباحث ضمن هذه المجتمعات الافتراضية، وذلك من خلال الملاحظة بالمشاركة ومعايشة المبحوثين، كما يتيح الأسلوب الناتنوغرافي للباحثين فرصة التعرف على ظواهر جديدة في الحياة الاجتماعية الافتراضية و يسمح بمعاينة كيفية إنتاج و توليد الممارسات الاجتماعية و الثقافية و كذا تشكل الجماعات الافتراضية في الاتصال الرقمي.

وينبني البحث الناتنوغرافي على خطوات منهجية جوهرية ترتبط فيما بينها بنيويا لتشكل إطارا متكاملا لدراسة المجتمعات الافتراضية، من أهم خطواته نجد: تصميم البحث، جمع البيانات، التفسير.

بالنسبة للخطوة الأولى يتم فيها صياغة أسئلة البحث الرئيسية وتحديد المجتمع أو الجماعة المدروسة داخل الفضاءات الرقمية، والذي قد يكون منصة تفاعلية أو موقعا للحوار والدردشة أو فضاءً تواصليا داخل شبكات التواصل الاجتماعي أو فضاء تدوينيا، حيث ينبغي على الباحث في هذه المرحلة أن يقوم بتحديد الجوانب والمتغيرات التي يريد دراستها و كذا الأفراد المبحوثين، إضافة إلى البحث عن أفضل الخطط المنهجية للدخول في فضاء المجتمع أو المجموعة المختارة للدراسة شريطة أن تكون نشطة وديناميكية و أن يكون التفاعل و التواصل مستمرا و ساريا بشكل طبيعي و سلسا بين أعضائها، وأن يكون أغلب مفردات المجتمع أو المجموعة المدروسة مشاركين فاعلين في الأنشطة و التفاعلات الافتراضية و ألا يقتصر التفاعل فقط على عدد محدود منهم.كما يجب أن تتسم المفردات بالتنوع المطلوب و لا تكون مبنية على التجانس المطلق بين أعضائها. كما يفترض أن تكون غنية بالمعطيات و أن توفر للباحث منصة متينة عن الممارسات التواصلية و المضامين التفاعلية، حتى يستند عليها و يستثمرها في عملية التفسير والتأويل، كأن يتم انتقاء مجتمع أو مجموعة الدراسة وفقا لغزارة المعلومات التي يوفرها والتي تفيد الدراسة البحثية.

أما المرحلة الثانية فهي عملية جمع المعطيات والبيانات وتكون عن طريق النسخ المباشر لمحتويات التفاعل و كذا تفكيك الأنماط الرمزية والتواصلية لإنتاج و توليد و تأويل المعاني داخل الفضاء الافتراضي المدروس وهي تتجلى عادة في ثلاثة أشكال:

أ- معطيات يجمعها الباحث بنفسه و بشكل مباشر من فضاء المجموعة قيد الدراسة.

ب- معطيات يتم جمعها عن طريق تسجيل التفاعلات الافتراضية و مضامين الاتصال.

ت- معطيات يتم إعادة بنائها و استنتاجها عن طريق الملاحظة المباشرة للباحث.

المرحلة الثالثة وهي مرحلة التحليل والتفسيروذلك من خلال بناء نظام تحليلي ترميزي و دلالي موضع الأداء و الأفعال التواصلية في سياقاتها الاجتماعية و الثقافية، كما ينبغي على الباحث في هذه المرحلة الاستفادة من المكونات النظرية والمفاهيمية في عملية التأويل، وبالتالي البيانات النوعية التي يتم جمعها وتحليلها عن طريق آليتي التفسير والتأويل، ستدمج و توظف لاستنباط مفاهيم جديدة ذات دلالة خاصة.

ومن المهارات الواجب توفرها في الباحث الناتنوغرافي مايلي: (حيزير، 2018، 283)

- التواجد المستمر والدائم للباحث على ساحة الحقل الافتراضي المعني بالدراسة.
- التقيّد الصارم بالملاحظة اليومية للمستخدمين المنتمين للحقل الافتراضي المدروس.
- يجب أن يكون الفضاء المختار للدراسة معروفا كموقع للتبادل الافتراضي وليس مكانا للتبادل وجها لوجه.
- اعتبار الأنترنيت مكانا ثقافيا يقبل الملاحظة فيه.
- اعتبار كل أشكال التفاعلات الإثنوغرافية ممكنة، وليس فقط التبادل وجها لوجه.
- ضرورة التكيّف مع كل الوضعيات أثناء العمل علة اكتشاف العلاقات الشخصية.
- اعتبار الناتنوغرافيا نشاطا يوميا مستمرا للباحث أكثر من المستخدمين.

الخلاصة:

في الأخير يمكننا أن نخلص إلى أن الأسلوب الناتنوغرافي هو تكييف للمنهج الإثنوغرافي كمنهج نوعي لدراسة المجتمعات الافتراضية معتمدا أساسا على الملاحظة بالمشاركة والمقابلة بمختلف أنواعها لجمع البيانات حول الأعمال التواصلية لأعضاء المجتمع الافتراضي بهدف إنتاج معرفة جديدة تتعلق بالتفاعلات وإنتاج الأدوار الاجتماعية في الفضاءات الرقمية. وجاءت الحاجة لهذا التكييف بعد تسجيل قصور لدى الباحثين في الوصول إلى نتائج وتحليلات وتفسيرات دقيقة ومعمقة حول المجتمعات الافتراضية عند استخدامهم لمناهج وأدوات البحث الكمية، وهذا ما دفع الباحثين الغربيين في تخصص علوم الإعلام والاتصال إلى تكييف أسلوب بحثي تقليدي لدراسة الظاهرة الاتصالية الرقمية مع نوع من

المرونة في الاستخدام. وعليه تبقى أبحاث الإعلام والاتصال بمثابة فضاء مفتوح تؤسس لنفسها في كل مرة المقاربات والأساليب الملائمة لدراستها.

- قائمة المراجع:

- أوراغي أحمد(2007)، الدراسات الأنثروبولوجية في جامعة تلمسان الواقع والأبعاد، ورقة مقدمة للملتقى الأول حول وضعية البحث الأنثروبولوجي في العالم العربي، تبسة، الجزائر9/10 ديسمبر.
- بيتيمونكلتوم(2016)، "السياقات الثقافية الموجهة للهوية الرقمية في ضوء تحديات المجتمع الشبكي من التداول الافتراضي إلى الممارسة الواقعية"، مجلة إضافات، العدد33/34.
- حسني حسن رفعت(2019)، "المجتمعات الافتراضية وجيل الأنترنيت: المفهوم، السمات، الأنواع، الحوار المتمدن، العدد67، متاح على الرابط m.ahewar.org ، تاريخ التصفح 2021/10/28 على الساعة 14.00.
- حيزير رزيقة(2018)، المنهج الإثنوغرافي واستخداماته في علوم الإعلام والاتصال، مجلة العلوم القانونية والاجتماعية، الجزائر،المجلد3، العدد4.
- رحومة علي محمد(2008)، علم الاجتماع الآلي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- زايد أحمد(2003)، "عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية"، مجلة عالم الفكر، المجلد32، العدد1.
- ساسي سفيان(2017)، "سوسيولوجيا التواصل الاجتماعي الافتراضي"، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، المجلد10، العدد03.
- عبد المجيد صلاح مها(2016)، الإشكالات المنهجية في دراسة تطبيقات الإعلام الاجتماعي: رؤية تحليلية، المجلة العربية للإعلام والاتصال، العدد15.
- قسايسية علي(2010)، نحو آفاق اثنوغرافية في دراسات الجمهور في الجزائر، متاح على الموقع alikspace.weebly.com تاريخ الزيارة 2020/12/15، على الساعة 15.00.
- قسايسية علي(2020)،"كوفيد 19، الاتصال الجماهيري والوسائط الجديدة: تغيرات عميقة في الممارسة وأساليب الدراسة"، مجلة بحوث العلاقات العامة، الشرق الأوسط، مجلة علمية محكمة تصدر عن الجمعية المصرية للعلاقات العامة، الجزء 1، العدد29.
- Hachemi kemouchenadia ,Laradialliouchebahia(2020), La stratégie de contenu digital pour susciter la participation d'une communauté de marque en ligne-exploration netnographique-,Revue des sciences sociales et humaines, université de batna1,V(21),n2.
- Sayarh nada(2013), La netnographie mise en application d'une méthode d'investigation des communautés virtuelles représentant un intérêt pour l'étude des sujets sensibles, recherches qualitative, sur le site : http://www.recherchequalitative.qc.ca/documents/files/revue/edition_reguliere/numero32(2)/32-2-sayarh.pdf